

الأهمية 2008-01-13

## 135- عن الثقة والتخوين وحركية النمو (1) والنمو البشري

من مدخل مهم، هو ضروري لفهم حركية النمو وجدلية الحياة، نناقش اليوم تنويعات الحركة النمائية الطورية، تمهيدا للدخول إلى عصور الإنسان الثمانية التي وصفها إريك إريكسون باعتبارها مراحل النمو المتتالية من الولادة حتى نهاية العمر.

المرحلة الأولى هي المرحلة التي أسماها مرحلة (مأزق) **الثقة في مقابل التخوين** Trust versus Mistrust ، ولأول وهلة، للقارئ المتعجل، الدارس الساكن، نتصور أنه اختيار يحمل فكرة "إما ..أو"، إما أن يكتسب الطفل الثقة من خلال موقف إيجابي من أمه أو أنه يفتردها فيظل موقفه مشحونا بمشاعر ثم أفكار التخوين،

## والأمر ليس كذلك تماما .

حين توقفت مسيرة النمو والتطور بشكل منذر في بلادنا عامة، غلب على تفكيرنا، ومن ثم على موقفنا في الحياة (بما في ذلك السياسة والتدين وحتى بعض أشكال الإبداع أو ما يسمى كذلك)، ذلك الموقف الاستقطابي المضاد. "إما .. أو..". يحدث ذلك ليس فقط في اختياراتنا اليومية، وإنما هو يضاد حتى في أغلب مواجهاتنا: مع الغرب، ومع العدو، ومع أي آخر مختلف بل ومع أنفسنا أساسا "إما... أو.."

هذا الموقف الاستقطابي ليس هو حقيقة ما يجري في الحياة وفي التطور وفي القوانين الطبيعية. ونحن لا يمكن أن نفهم من خلاله أيًا من مراحل النمو أو حيوية الإبداع، أو كدح الإيمان أو جدل العلاقات البشرية، نحن نستهل حين نحاول حله بما أسميتة الحل الشوياتي (شوية من هذا وشوية من ذاك) الذي إذا استقر وثبت وسكن، يمكن أن يسمى الحل الوسط أو التسوية، وقد تناولت التحذير من مثل هذا التوفيق الاستسهالي الذي يصل أحيانا، بل كثيرا إلى التلفيق، في نقدي لكتاب "الشرق الفنان" للدكتور زكي نجيب محمود **يومية 9-9-2007** الشرق الفنان في هذه اليومية، كما تناولت نقد فلسفة التعادلة لتوفيق الحكيم، وخاصة في طبعها الأخيرة التي حاول أن يدعم فيها فلسفته بأنها موازية لما شاع عن

تفسير "أمة وسطا" في الإسلام، وقد رفضت هذا التفسير الساكن للوسطية لهذا الدين الحيوى المتجدد أبداً.

الخل الآخر الذى يمكن أن يتجاوز ما يتبادر للذهن من تناقض قطبي الاستقطاب هو **الخل التبادلى**، بمعنى أننا إذا قبلنا قطبي الاستقطاب مع اعتبار البعد الرابع (الزمن) واكتشفنا أن لكل قطب دوره فى زمنه، فإن القطبين يصبحان متكاملين لا متضادين، تماماً مثل تكامل الليل مع النهار بالتبادل، والنوم مع اليقظة، والنوم الخالم المصاحب بحركات العين السريعة (نوم: ريم) مع النوم غير الخالم بدون حركات العين السريعة (نوم: بدريم). هذا النوع من التبادل هو طولى بشكل أو بآخر، وله علاقة مناسبة بحركية الإيقاع (أنظر بعد).

### الثقة الأساسية مقابل التخوين

المفروض أن الطفل فى بطن أمه هو محاط بحماية كافية، معتمد اعتماداً مطلقاً، يصله غذاؤه جاهزاً كاملاً حتى دمه مباشرة، وهو سعيد بتأخر نمو وعيه، واثق من خطاته الواحدة تلو الأخرى، لا يعمل حساب آخر يزعجه (حتى لو كان توأمه) وهو ليس عنده غدٌ يقلقه حتى لو كان قاب قوسين أو أدنى من خروجه إلى عالم "الآخرين" المزعج، عالمنا، وحين يطرد من هذه الجنة الآمنة، وعجرد أن يميز بين ما هو "أنا"، وما هو "لا أنا" تبدأ حركية النمو بكل روعتها ومخاطرها وعودها

الموقف المطروح على وعينا الظاهر فى معظم فترات حياتنا هو **الاختبار بين الثقة والتخوين**،

أنا أثق فى فلان، أنا أستخون فلانة،

إما أنا أثق فىك تماماً، أو أنا لا أثق فىك أصلاً ودائماً،

أنت محل ثقى فعلاً، أنت لا يوثق فىك أبداً،

الصحة النفسية هى أن تثق فى الناس، أما لو استخونت خلق الله فهو التفكير التأمري والاضطراب

هذا كله اختزال معيب، ضد الطبيعة البشرية، والتطور الحيوى، ومسيرة النمو.

فإذا كان الخل الشويأتى هو تسكين مؤقت، وكان الخل الوسط هو أيضاً كذلك، ويصبح خطراً على النمو لو كان هو (أو الخل الشويأتى) **نهاية المطاف**

فما هى البدائل حتى نستطيع أن نستوعب الطبيعة البشرية فى حركيتها النمائية؟

### محاور وآليات حركية النمو

المعادلات الميكانيكية، والرياضة الإقليدية، والطبيعة

النيوتونية، والمنطق الأرسطي، على أهمية كل منها، أصبحت كل هذه المراحل من المراحل التي يجب احترامها في تاريخها، وأيضاً فيما تبقى لها من أدوار محدودة في حياتنا المعاصرة وفكرنا الحديث، ولكنها لم تعد صالحة لتفسير كثير من الظاهر الطبيعية في ذاتها، المعقدة في تفسيرها. لن أدخل في تفاصيل ما طرأ من تحديث وتجاوزات علمية وفكرية ومعرفية لهذه المفاهيم جميعها: أولاً لأنني لست أهلاً لذلك، وثانياً لأنها شديدة التخصص برغم من أن إضافاتها وإسهاماتها هي جارية ليل نهار في حياتنا اليومية.

من واقع استعادة حركية النمو في علاج الأمراض النفسية عامة، وعلاج الذهان خاصة، والعلاج الجمعي أكثر تحديداً، وأيضاً من واقع رصد ما أمكن من حركية الجنون فالنكوص والتدهور، كل ذلك من منظور حركي تطوري حيوي، يمكن رصد معالم الفرض الذي نقدمه في هذه المداخلة على الوجه التالي:

### معالم الفرض

• تتم حركية النمو (التطور) على محاور متعددة طول الوقت، وهي ليست محاور متتالية أو اختيارية فيما بينها، بقدر ما هو محاور آنية (في نفس الوقت) مواكبة (معاً) متناوبة (إيقاعية) متكاملة (كلية) جدلية (ولافية).

• إن أي تفكير لا يأخذ في الاعتبار بعدئ الحركة والزمن لا يمكنه الإحاطة الكافية بعملية النمو والتطور

• وبالتالي، فإن أي حديث عن النمو أو التطور من بعد ساكن (استاتيكي) هو إما قاصر، أو خطأ

• إن وصف هذه الحركات المقترحة هو من منظور إكلينيكي أساساً، تاركين ترجمته إلى آليات الرياضة أو الطبيعة الحديثتين أو حتى إلى لغة البيولوجي لمرحلة لاحقة، ومختصين أقدر.

• إن وضع هذه الأبعاد الحركية في الاعتبار يترتب عليه إلغاء الاستقطاب السكوني، والعكسي باحتواء القطبين بآليات مختلفة حسب المرحلة والسياق المتاح

• وفيما يلي الحركات المقترحة

الحركة "الذاهبة العائدة، الداخلة الخارجة"، (To-and-Fro & In-and-out Movement)

الحركة "الاستقطابية التكاملية الخيطة" (Containment Polarization Integrative Movement)

الحركة "الإيقاعية الحيوية" (Biorhythmic Movement)

الحركة "الجدلية الولايفية" (Dialectic Synthetic Movement)

أكتفى في هذه المقدمة بشرح شديد الإيجاز (لدرجة قد تكون

خلة) لهذه الحركات الأربع، حيث أفضل تأجيل التفاصيل حين إمكانية الاستشهاد في كل منها بعينات حية من حالات أكلينيكية، بعد تنظير مناسب، وأيضاً تمهيدا لتهيئة استعداد كاف من المتلقى.

الإشكال في تناول أى بعد للحركية في ذاتها أننا نتناولها ونحن في حالة أبعد ما تكون عنها، وأيضاً في أننا عادة لا نتعرف على الحركة ذاتها، بل على ناتجها، حركية الإبداع هي المثال الواضح لهذه المحاذير والصعوبات معاً، معظم دراسات الإبداع تتناول ناتج الإبداع أكثر من تناولها حركية الإبداع باستثناءات قليلة أهمها عمل خالدة سعيد، وأنتون ستور .

أمل في تقديم باقى التنظير مع عينات حية سواء في سلسلة "حالات وأحوال"، أم مع آليات العلاج الجمعى (كما سيرد في الجزء الثانى من هذه المداخلة غدا: لعبة الثقة والتخوين في جلسة للعلاج الجمعى).

### الحركة "الذاهبة العائدة - الدخول الخروج"، (To-and-Fro & In-and-out Movement)

هى أشهر أشكال هذه الحركات وتسمى عادة " برنامج الدخول والخروج In-and-Out Program"، وهو البرنامج الذى يبدأ منذ خروج الطفل من الرحم، ويستمر بعد ذلك طول العمر بأطوال مختلفة، وتنوعات مختلفة، وهو برنامج نشط يسمح بالتقدم والتأخر باستمرار، وفي حالات السواء يكون ذراع التقدم أطول أو ذراع التأخر أقصر فتكون المصلحة هي التقدم دائماً، فيضطرد النمو. إذا تساوى الذراعان يتوقف النمو وتنقلب الحركة إلى نص معاد (سكرىبت).

تدل هذه الحركة (وترمز أيضاً) إلى طبيعة بشرية هي النزوع إلى الرجوع إلى الرحم، (أو ما يكافئ الرحم) خاصة أمام التهديد الخارجى: (إلى الكهف، أو إلى الذات، أو إلى النوم، أو إلى البيات الشتوى)،

ومن ثم، وبعد الاطمئنان النسبى وتجميع آليات دفاع قادرة، إعادة الخروج من الرحم (أو أى مما سبق).

وقد تكون فاعلية بعض العلاجات حتى الفيزيائية منها لها علاقة بهذا البرنامج (الدخول- الخروج)، وبالذات علاج غيبوبة الإنسولين، والعلاج بالتبريد، وحتى علاج تنظيم إيقاع الدماغ (المسمى خطأً: العلاج بالصدمات الكهربائية). في كل هذه العلاجات (وقد مارسها جميعاً في حينها: الأول والثانى في نهاية الخمسينيات، والثالث حتى الآن) حيث يتم إحداث دخول أو توقف مؤقت فيما يشبه سكينه الرحم، تمهيدا لبعث (ولادة) جديد، مما لا مجال لتفصيله الآن. (للأسف ينعنون الآن معظم هذه العلاجات أنها "غير رحيمة، وغير إنسانية !!!!!).

على مستوى آخر تتم حركة الذهاب والعودة To-and-Fro بين أى قطبين متضادين لأسباب متنوعة وبآليات مناسبة، وذلك

لاستيعاب أبعاد كل قطب بشكل يسمح بالاختيار بينهما، أو احتوائهما معا (الحركة التالية) إن لزم ذلك:

مثلا في العلاج الجمعي الجشثالى يتم التبادل بين الشكل والأرضية عن طريق الألعاب، والدراما القصيرة، والتركيز على هنا والآن (أنظر تكملة هذه اليومية غدا)، وتكون حركية الذهاب والعودة بمثابة تعميق معالم القطبين الظاهري التناقض، ومن ثم السماح بمعايشة كل منهما على حدة، ثم التبادل بينهما وكأننا نتحرك بينهما إلى أن تتضح الأمور للاختيار الأكثر واقعية ومسئولية، أو لاستيعاب بحركية أخرى كما يلى.

الحركة "الاستقطابية التكاملية الخيطية" (Containment Polarization Integrative Movement)

حتى يتواصل النمو، وبرغم أن الإنسان من حيث المبدأ قد احتوى كل مراحل تطوره، وتاريخه الحيوى في هذه الواحدية الناتجة عن جدل الحياة المتطورة Phylogeny، ثم جدل نموه الذاتى Ontogeny، فإنه يحوى في نفس الوقت داخل هذه الواحدية كل مراحل تطوره، التى هى تاريخ طويل من الاستقطاب فالولاف. ولكى يتنشط نموه فردا، (وجماعة) فإن هذا التاريخ لا ينتهى بتتويج الإنسان إنسانا بشكل جاهز، وإنما يعاد تنشيط كل مراحل النمو، وبالذات أثناء أزمات نمو الفرد التى تعتبر نقلة مكثفة إلى مرحلة تالية لا تخلو عادة من مخاطر، ومن خلال هذا التنشيط تتولد التناقضات بشكل طبيعى، ومن ثم يصبح قبول الاستقطاب هو البداية الطبيعية لأى أزمة نمو، وبمجرد أن يفرض الاستقطاب نفسه، تتولد حركة في اتجاه احتواء النقيضين بكل الأساليب المنغرسه في التاريخ الحيوى، ومن أهمها (أ) التناوب (ب) التقارب (ج) التحمل (د) بدايات التكامل أو التوليف.

إن استمرارية الحركة بين القطبين المنشطين أثناء أزمة النمو، مثلا بين قطبي الثقة والتخوين، من خلال هذه الآليات تعمل على ألا تثت المسافة بينهما، وبالتالي يظل التحرك فيما بينهما دفعا للنمو، وتعميقا للعلاقة بالواقع، وتدرجيا على تحمل الغموض، بما يسهل التقدم المضطرد لاحتواء التناقض بعد الاعتراف به طبيعة تاريخية ومرحلية لها دلالتها حين لا يؤخذ كل قطب منفصلا عن نقيضه مكانيا ونوعيا ونغائيا، بل يعتبر مكملا له في باقى سياق الكيان الكلى (الجشثالت) الذى يحتوى كلا القطبين في كيان أكبر، سواء كيان تاريخي (الماضى حاضرا الآن) أو كيان تكاملي (الأجزاء في كل معا) أو كيان واعد (الحركة الولافية القادمة) أو كيان نابض له طوربه المتكاملين (الإيقاع الحيوى).

الحركة "الإيقاعية الحيوى" (Biorhythmic Movement)

كل هذه الحركات السابقة لا تحدث بشكل مستقر على نفس الوتيرة ولا بنفس الحدة، وإنما هى (وغيرها) تحت

وتهدأ في نوبات امتلاء filling وبسط unfolding باستمرار، وهو ما أشرنا إليه كثيراً، وسنشير إليه أكثر ما دمنا نقدم الطب النفسى والتركيب البشرى من منظور تطورى، وتحديدًا أشرنا إلى هذا الإيقاع في "**يومية 2008-1-6 الشخصية الفرحانقباضية وأخواتها**". وقد حددنا آنذاك المعالم التى تتميز بها نبضة النمو، حتى تعتبر نبضة صحية سوية، من حيث تناوب شقئى النبضة (التمدد والاندفاع أى الاستيعاب والبسط) ليكمل بعضهما البعض تناوبًا منتظمًا يسمح لكل طور أن يؤدي وظيفته، ويصل الأمر أن تختل وظيفة أى طور، بل وتندم إن لم يؤد الطور الآخر وظيفته، تمامًا مثلما يستحيل دفع الدم من القلب في طور الانقباض Systole إذا لم يكن الأذين فالبطين قد امتلأ أثناء طور التراخي لامتلاء Diastole ، وتتم نبضة الإيقاع الحيوى على كل المستويات بكفاءة تتناسب مع التلاؤم والتكامل بين الطورين.

هذه الحركة لا تشير إلى أن ما بدأ تناقضا هو ليس كذلك فحسب، بل إنها تؤكد لزوم التناقض الظاهرى لتحقيق الوظيفة المتكاملة بشكل طبيعى.

#### الحركة "الجدلية التكاملية" Integrative Synthetic Movement

هذه الحركة ونتائجها المتجددة دوماً هي غاية كل الحركات السابقة، وهي تهدف إلى - ولا تحقق بشكل حاسم أبداً - تحريك التناقضات في اتجاه بعضها البعض بحيث يتخلق منهما الجديد الذى يعلن نقلة نوعية حقيقية تصل إلى ما يسمى "**إعادة الولادة**"، وهي ليست مجرد تجميع أجزاء في كل (جشثات) يشملها مثلما يحدث في التكامل، وإنما هي تفاعل جدلى بعد تراكم نشط إعداداً لتخليق مختلف اختلافًا حاسمًا عن ذى قبل، علما بأنه يحتوى كل ما هو قبل ذلك بحيث يكون عرضة للتحلل إليه في حالات النكوص أو التدهور أو الجنون، هذه الحركة الولاوية برغم أنها تبدو استيعابًا غائبًا لكل حركية النمو، إلا أنها عملية متكررة متصاعدة باستمرار، وهذا ما سوف نتاوله في قراءتنا لعصور الإنسان (مراحل النمو) حين نقرأ إريك إريكسون من جديد في هذه اليومية.

#### تجربة تطبيقية:

لا يمكن منهجيا تتبع حركية النمو هذه أو حركاته على مدى نمو الطفل بشكل يسمح بدراستها وإثباتها الواحدة بعد الأخرى، أو الواحدة جنب الأخرى، وإنما نحن نشاهد ملامح كل منها أثناء استعادة النمو في حركية الإبداع، وأيضًا في العلاج من منظور نمائى، وبالذات في العلاج الجمعى.

سوف نعرض غداً جزئية محدودة تمثل أساسا الحركة الثانية "**الاستقطابية التكاملية الخيطة**" (Containment Polarization Integrative Movement المرتبطة بمآزق المرحلة الأولى للنمو البشرى، مرحلة الثقة في مقابل

**التخوين** Trust Versus Mistrust ، وذلك من خلال عرض لعبة مركبة قام بها ثمانية مرضى وثلاثة معالجين (أطباء) على مستوى العيادة الخارجية مستشفى قصر العيني كلية الطب.

وسوف نعرض رأس اللعبة اليوم استعدادا لتقديمها غدا

ويمكن للقارئ (الزائر) أن يلعبها بنفسها حتى الغد، متخيلا شخصا بذاته، أو مع أحد المعارف أو الأصدقاء، وحده، أو بالتبادل، حتى نلتقى غدا مع المجموعة

فقط لابد من الالتزام باستعمال نفس الألفاظ، وبالذات ضمائر "أنا" "أنت" بالتبادل مع كل لعبة (ويمكن الرجوع إلى قواعد اللعب النفسى في أى يومية سابقة للألعاب)

اللعبة (التفاصيل غدا)

(1) يا (فلان) أنا بثق فيك حتى لو انت ..... (أكمل أى كلام)

(2) يا (فلان) أنا بثق فيك حتى لو أنا ..... (أكمل أى كلام)

(3) يا (فلان) أنا ما باثقشى فيك عشان أنا ..... (أكمل أى كلام)

(4) يا (فلان) أنا ما باثقشى فيك عشان أنا .... (أكمل أى كلام)

وهكذا

**ملاحظة:** كما سوف نلاحظ حاولنا في هذه اللعبة المركبة أن نضيف ضمائر "أنا" و"أنت" تحريكا لكل من المسئولية الذاتية في مقابل احتمال "لوم الآخر" "Putting the Blame" على كل من محورى "الثقة"، و"التخوين"

أنظر غدا

- شوية كلمة عربية فصحي، في الوسيط: الشؤيّة: القليل من الكثير.

- ورد ما يقابل هذا الوصف في صدى من أصداء السيرة الذاتية على الوجه التالى:

فيلسوف صغير جدا: يطاردنى الشعور بالشيخوخة رغم إرادتى بغير دعوة، لا أدرى كيف أتناسى دنو النهاية وهمينة الوداع، تحية للعمر الطويل الذى أمضيته في الأمان والغبطة. تحية لمتعة الحياة في بحر الحنان والنمو والمعرفة. الآن يؤذن الصوت الأبدى بالرحيل ودع دنياك الجميلة واذهب إلى المجهول. وما المجهول يا قلبى إلا الفناء. دع عنك ترهات الإنتقال إلى حياة أخرى، كيف ولماذا وأى حكمة تبرر وجودها، أما المعقول حقا فهو ما يجزن له قلبى، الوداع أيتها الحياة التى تلقيت منها كل معنى، ثم انقضت مخلقة تاريخًا خاليا من أى معنى. (من خواطر جنين في نهاية شهره التاسع).

خالدة سعيد: "حركية الإبداع" - دار العودة - بيروت  
-1979.

- Anthony Storr: " The Dyanmics of Creation"  
Published by Penguin Group 1972.

- برغم رفضي الشديد لأية محاولة في اتجاه ما يسمى التفسير العلمي للقرآن الكريم أو لأى نص مقدس، ومع حرصى وحذرى وتحذيرى من أى استشهاد يجمّل أية شبهة في هذا الاتجاه، إلى أننى أجد نفسى مضطرا إلى التذكرة بأن النفس التى سواها الله سبحانه وتعالى وألهمها فجورها وتقواها، كل ما علينا تجاهها هو أن نتعهد هذين القطبين ليدخلا في الكل النامى كدحا إليه تعالى. هذا ليس تفسيرا ولا دعما للفرض الذى تقدمت به، فقط هو إبلاغ ما وصلنى حين تعجبت وفرحت حين عرفت أن زكاها = نماها لا أكثر ولا أقل، في حين أن معظم ما وقع تحت نظرى من تفاسير جعل زكاها ترجيحا لأحد القطبين. أسف، هذا ليس دليلا على شيء، لكنه استلهام واحترام لما وصلنى، أحسست أنه ليس من حقى أن أكتمه.

**The Man & Evolution FORUM Web Site**

<http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum/>

**Forum Subscription**

[TheManAndEvolutionForum-subscribe@yahoogroupes.fr](mailto:TheManAndEvolutionForum-subscribe@yahoogroupes.fr)

**Mail To Forum Participate**

[TheManAndEvolution-FORUM@arabpsynet.com](mailto:TheManAndEvolution-FORUM@arabpsynet.com)

**FORUM INVITATION**

[www.arabpsynet.com/Rakhawy/MaEForumInvitation.pdf](http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/MaEForumInvitation.pdf)